المسكوت عنه في خطاب البابا بينيدكت السادس عشر

لطفي زيتون*

■ خلال جولته التي قام بها في المانيا قبل أيام ألقى البابا بينيدكت السادس عشر محاضرة في جمع من الأكاديميين بجامعة ريغينسبورغ بعنوان «العقيدة العقل والجامعة».

المطالع لنص المحاضرة المنشور على الموقع الكتروني الرسمي للفاتيكان يكتشف بسهولة ان الهدف الاساسي لهذه المحاضرة الفلسفية الموجهة لنخبة الأكاديميا الالمانية هو اقناعهم بوجوب المصالحة بين العقلانية الحداثية واللاهوت المسيحي الكاثوليكي. ويتوسل البابا الى ذلك بمحاولة اقناع مستمعيه بالتوافق الحاصل منذ وقت مبكر بين الديانة المسيحية والفلسفة الاغريقية التي تجد فيها فلسفة الحداثة جذورها الاولى.

ومضمون الرسالة الاولى التي يرسلها البابا لهؤلاء الاكاديميين من خلال تأكيده على موضوع العقل وأن افعال الذات الإلهية كما يفهمها المسيحيون الكاثوليك لا يمكن أن تناقض العقل والمنطق البشري ان اللاهوت المسيحي والحداثة الليبيرالية يمكن ان يجدا نقطة التقاء ما. وليس أفضل حسب بينيدكت السادس عشر من المؤسسة الاكاديمية فهو يدعو صراحة الى أن يعود اللاهوت ليحتل مكانه بين بقية العلوم التجريبية والانسانية واحدا منها لا يختلف عنها الا من حيث الموضوع وليس من حيث الصرامة العلمية..

وهنا يأتي الاستدلال بمقولة الامبراطور البيزنطي مانويل الثاني (1350ـ1425) حول النبي محمد صلى الله عليه وسلم والتي نقلها اللبناني ثيودور خوري استاذ علم اللاهوت باحدى الجامعات الالمانية من خلال ترجمته وتحقيقه للمناظرة السابعة من كتاب مانويل الثاني «حوار مع مدرس فارسي». اختار البابا من المناظرة التي تمتد لأكثر من 40 صفحة سطرا واحدا يتعرض فيه مانويل الثاني للرسول محمد صلى الله عليه وسلم قائلا: «أرني ما الجديد الذي جاء به محمد. لن تجد الا أشياء شريرة وغير انسانية مثل أمره بنشر الدين الذي كان يبشر به بحد السيف».

قد يتبادر الى ذهن القارئ للوهلة الاولى ان هذا الاستدلال حشر حشرا في محاضرة فلسفية حول اللاهوت والعقل ولا علاقة له بالهدف الاساسي للمحاضرة. أو ان اختيار البابا جاء اعتباطيا ليعبر عن رفضه للعنف سبيلا لنشر العقائد كما أراد الناطق باسم الفاتيكان ان يقنعنا.

ولكن التأمل الدقيق في الاستدلال البابوي سريعا ما يكتشف المستور وما يهدف اليه البابا من خلال هذا الانتقاء البارع والماكر في نفس الوقت.

1ـ لو أراد البابا ابتداء التهجم على النبي محمد وعلى الدين الاسلامي فقط فقد كان امامه جملة من النصوص أعمق واشد حبكة من مقولة مانويل الثاني الذي كان محاربا ولم يكن بحال عالم لاهوت بما يؤهله للغوص في أعماق النصوص الدينية ونقدها. الادب الكنسي القروسطي مليء بالنصوص التي تتهجم على الاسلام وعلى نبيه الكريم وليس أقل هذه النصوص كتاب ريكولدو دو مونت كروس «مقولات ضد محمد» Discourse Against Mahomet وقد ترجمه أستاذ مانويل الثاني عالم اللاهوت البيزنطي سيدونس وأهدى للامبراطور نسخة اعتمد عليها بالكلية في صياغته للمناظرات التي جرت بينه والعالم الفارسي المشار اليه. ولكن البابا اختار الاستدلال بمانويل عوض الرجوع الى النص الاصلي خدمة لجملة من الاهداف الدينية والسياسية.

2ـ أهمية مانويل لدى البابا تكمن في أنه امبراطور بيزنطي حكم في اوج الصعود العثماني. ولفظة امبراطور اذا اطلقت على هذا الحاكم البيزنطي بالذات فذلك لا يعدو ان يكون من باب التجاوز فقط ففي عهده تقلصت الامبراطورية البيزنطية لتقتصر على العاصمة القسطنطينية وضواحيها وأصبح هو ذاته تابعا للسلطان العثماني بايازيد الذي سمح له بالحفاظ على ملك القسطنطينية مقابل المشاركة في حروبه الكثيرة على الجبهة الداخلية تثبيتا لحكم آل عثمان وعلى الجبهة الاوروبية ضربا لاعداء الدولة.

البابا من خلال هذا الاختيار وقبل زيارته المنتظرة الى تركيا في بداية الشتاء يريد ان يرسل رسالة للأتراك تذكرهم بأنهم يحتلون احدى العواصم المسيحية الكبرى وأن المرجعية الكنسية العليا لم تنس ذلك. وهنا يجد الحديث عن ظروف تأليف الكتاب التي قال البابا انها كانت خلال حصار القسطنطينية مكانه في المحاضرة. البابا يريد أن يذكر الاوروبيين أن تركيا التي ينادي البعض بادخالها الى الاتحاد الاوروبي كانت الى الامس القريب محاربة للمسيحيين محتلة لأوروبا.

3ـ أهمية حوار مانويل الثاني تكمن أيضا في أن طرفه الثاني كان مدرسا فارسيا بما يمكن من استدعاء الفرس الى المحاضرة في اشارة ماكرة الى الخطر الفارسي الذي يشغل اليوم القوى الغربية من خلال المشروع النووي الايراني.

4ـ نأتي الآن الى محتوى الاستدلال ذاته حيث يقول مانويل الثاني للمدرس: «أرني ما الجديد الذي جاء به محمد. لن تجد الا أشياء شريرة وغير انسانية مثل أمره بحد السيف». البابا ومن خلال هذا الاختيار يبدو مسكونا بهاجس الجاذبية التي يتمتع بها الاسلام اليوم في بعض الدوائر الغربية وخاصة الأكاديمية منها. فهو باعتباره أعلى سلطة دينية في الغرب تصله الارقام الدقيقة حول عدد الذين يتحولون الى الاسلام كما يرصد الاهتمام المتزايد بالاسلام في أقسام العلوم الانسانية كالسياسة والاجتماع والتاريخ ومقارنة الاديان والاقتصاد والقانون اضافة الى أقسام العلوم الاسلامية التي بدأت تطل برأسها في عديد الجامعات الغربية. انه يخاطب النخبة الاكاديمية الالمانية التي تعتبر تاريخيا أكثر النخب اهتماما بالاسلام وخاصة بشخصية النبي محمد ويخاطب من خلالها كل النخب الغربية: «أروني ما الجديد الذي جاء به محمد ..» حتى يلقى منكم كل هذه الحفاوة. وقد لا يكون النقد الذي وجهه للفيلسوف الالماني كانط المعروف عنه قربه من الاسلام بعيدا عن هذا المقصد.

5ـ اشارة أخرى وردت في محاضرة البابا أهملت بسبب التركيز على التهجم الفظ والغليظ على شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم. في معرض شرحه للعلاقة بين اليهودية والمسيحية وعلاقتهما والتقائهما بالفكر الاغريقي يقول البابا: «في العهد القديم، بلغ المسار الذي بدأ عند النار مستوى آخر من النضج مع مرحلة التيه عندما اعتبر اله اسرائيل، اسرئيل التي كانت محرومة وقتها من أرضها وعبادتها، ربا للسموات والأرض ..» ما يهمنا في هذا المقطع هو الجملة الاعتراضية: اسرائيل التي كانت محرومة وقتها من أرضها وعبادتها.. ليس الأمر مجرد مغازلة لليهود بل يدخل في تصور البابا لتصنيف القوى في العالم الذي يحاول أن يقنع به مستمعيه ومن خلالهم الغرب. تحالف مسيحي يهودي تقوده الكنيسة الكاثوليكية ضد الاسلام الذي يوصف الاعتماد على العنف والارهاب (واضح في كلام البابا انه لم يكن يتحدث عن فئة من المسلمين قد تكون متطرفة بل هو بتعرضه لرسول الاسلام صلى الله عليه وسلم يعني الدين ذاته) وخاصة دولتيه الكبيرتين المحتكتين بالغرب احتكاكا مباشرا: تركيا من خلال اصرارها على الانظمام الى الاتحاد الأوروبي الذي يعتبره البابا بينيدكت ناديا مسيحيا لا يسمح بدخوله لدولة مسلمة ذات ثقل سكاني معتبر سيؤدي انضمامها الى الاتحاد الى الاستقرار النهائي للاسلام في القارة باعتباره أحد الأديان الأوروبية الكبرى. وايران التي تسعى أيضا الى دخول النادي النووي ما سيؤدي ان تم بنجاح الى احداث تحول راديكالي في موازين القوى سيجعل من وجود دولة اسرائيل أمرا غير ذي قيمة كبرى في موازين القوى الدولية والاقليمية.

البابا اذن ومن خلال دأبه على أن تستعيد الكنيسة الكاثوليكية مكانتها في الفكر والسياسة الغربيين يعبر هنا عن استعداد مؤسسته لتقديم جملة من التنازلات الفكرية تؤهلها لبلوغ نقطة التقاء مع الفلسفة الحداثية كما حصل تاريخيا، بحسب محاضرته، بين المسيحية والفلسفة الاغريقية، وهو من خلال استدعاء تاريخ الحروب بين البيزنطيين والمسلمين يرشح كنيسته للعب دور المشارك ان لم يكن القائد لصراع الحضارات الذي تقوده اليوم الولايات المتحدة واسرائيل ويستهدف الاسلام سياسيا من خلال الاعتداء على جغرافيته بالاحتلال ودينيا من خلال محاولة اعادة صياغته وتغيير مناهجه.

في ظل هذا الفهم للمسكوت عنه في محاضرة البابا تغدو مطالبة المسلمين له بالاعتذار رغم أهميتها السياسية غير ذات جدوى كبيرة فهذا ليس صحافيا مغمورا في دولة اسكندينافية هامشية. هذا حبر المسيحية الأعظم الذي امتنع أسلافه جيلا بعد جيل عن الاعتذار عن جرائم كبرى ضد شعوب الارض وخاصة المسلمين منهم. رفضوا باصرار الاعتذار عن محاكم التفتيش وعن الحروب الصليبية فما أهمية الاعتذار عن سطرين في محاضرة؟

الاهم هو القراءة الصحيحة لما يحدث من تحولات كبرى في السياسة الدولية واستدعاء التاريخ كما فعل البابا: المسلمون والعرب (مسلموهم ومسيحيوهم) خصوصا وهم مفرقون لا يساوون شيئا في ميزان السياسة. والمسلمون ومؤسستهم العلمائية مهمشة ومترهلة وتابعة للديكتاتورية لا حظ لهم في ميزان الدين.

* اعلامي وباحث تونسي مقيم بلندن

من المقاومة الطالبانية إلى المقاومة الشعبية

أحمد موفق زيدان*

■ التصعيد العسكري الحاصل في أفغانستان، وما نشهده من خسائر بشرية متعاظمة تصل إلى قتل القوات الأجنبية ما قالت إنه 500 مقاتل طالباني يشير بنظر الكثير من المتابعين والمعنيين إلى تحول خطير في مسيرة القتال الأفغاني الحالي، هذا القتال الذي تحول بنظر هؤلاء من مقاومة طالبانية إلى مقاومة شعبية، سيما وأن كثيرا من القتلى الذين تزعم قوات التحالف الدولي على أنهم من مقاتلي طالبان إنما هم أناس عاديون وهو ما سيؤجج المقاومة ويدفع بأطراف وجهات أفغانية جديدة إلى ساحة الصراع ضد القوات الأجنبية.

تصريحات قادة حلف الناتو الأخيرة تؤكد هذا المعنى حين قال بعض الجنرالات إن العمليات الحاصلة في أفغانستان ليست كلها من تنفيذ حركة طالبان الأفغانية، فهناك حركات كثيرة اصطفت إلى جانب طالبان على رأسها الحزب الإسلامي الأفغاني بزعامة قلب الدين حكمتيار والقائد جلال الدين حقاني، الشخصية الجهادية المستقلة المعروفة رغم علاقاته القوية ظاهريا مع حركة طالبان الأفغانية، وهناك انضمام واصطفاف لبعض القبائل الأفغانية البشتونية، خاصة مع تعلق الأمر بوصول القوات البريطانية إلى مناطق قندهار والجنوب البشتوني بشكل عام، المنطقة التي تحمل ثأرا كبيرا لهذه القوات التي خاض أجدادهم ضد البريطانيين ثلاثة حروب وما تزال القبور شاهدة على ضراوة تلك المعارك، وتنظر هذه القبائل المتمسكة بتقاليدها وعاداتها إلى هذه المعركة على أنها فرصة للانتقام والثأر وتكرار ما فعله أجدادهم مما سمعوه أو قرأوه.

التنافس الذي يميز القبائل بشكل عام والقبائل الأفغانية بشكل خاص ينعكس بشكل واضح في القتال الحاصل في الجنوب الأفغاني إذ أن كل قبيلة ستحرص على تقديم عدد من الانتحاريين أكثر من القبيلة الأخرى، أو ستقاوم البريطانيين أكثر من الأخرى لتثبت وفاءها لأجدادها وسجلها السابق في قتال أجدادها للقوات البريطانية خلال القرنين الماضيين.

الامتداد الطالباني ثقافيا وإسلاميا في المناطق المجاورة وتحديدا في مناطق القبائل الباكستانية وإمكانية انسحاب ذلك على مناطق أخرى أمر يقلق الإدارة الأمريكية، ينضاف إليه ما يتردد عن دعم مالي طالباني بدأت الحركة بالحصول عليه من بعض الدول العربية والإسلامية وهو ما يقلق الإدارة الأمريكية، يتزامن ذلك مع فشل حلف الناتو في إرسال 2500 جندي إلى أفغانستان وتأمين فقط 2000 جندي كل ذلك يشير إلى عجز هذه الحكومات وتقاعسها عن أداء المهمة التي جاءت من أجلها وهي القضاء على حركة طالبان وتنظيم القاعدة، وجاء اعتراف وزير الدفاع البريطاني بذهول قواته في الأداء الطالباني ليعزز من المهمة المستحيلة التي تقوم بها هذه القوات في أفغانستان والجنوب منه تحديدا.

هذا الواقع دفع على ما يبدو بعض العقلاء في وسائل الإعلام الأمريكية والبريطانية إلى الدعوة الجدية لمراجعة السياسة الأمريكية والغربية بشكل عام في التعاطي مع حركة طالبان والقوى المناوئة للوجود الأمريكي في أفغانستان على أساس دعوة إلى فتح الحوار مع هذه القوى قبل فوات الأوان، كل ذلك ينبغي أن يُقرأ في سياق ما أعلن عنه الرئيس الباكستاني برويز مشرف أمام المشرعين الأوروبيين حين قال إن حركة طالبان أخطر من تنظيم القاعدة ليمرر الرسالة الأخطر وهي الجزء الثاني من كلامه وهو أن سبب خطرها أن لديها جذوراً سياسية واجتماعية في أفغانستان، وليست حركة عسكرية منعزلة عن محيطها وبيئتها، هذا الأمر يفهمه المشرعون الأوروبيون بحكم خبرتهم بتمثيل الشعوب والقوميات، على أساس أن الحركة ممثلة شعبيا، وبالتالي كيف لحركة لها جذور شعبية غير ممثلة في الحكم، إذن المحصلة ينبغي الحديث إليها والتفاهم معها، ولذا مثل هذا التصريح من قبل مشرف أقض مضاجع الحكومة الأفغانية وتحديدا الرئيس الأفغاني حامد كارزاي الذي شن هجوما على الرئيس الباكستاني متهما باكستان وأجهزتها الأمنية بدعم حركة طالبان المنبتة شعبيا حسب قوله، وربما ما يزيد قلق الأوساط الأمريكية ومعها كارزاي هو النغمة الجديدة لبعض رموز الجهاد الأفغاني سابقا مثل برهان الدين رباني الذي بدأ يتحدث عن أخطاء القوات الأمريكية ومسؤوليتها في فشل تأمين الاستقرار والأمن لأفغانستان.

* اعلامي من سورية

تصريحات البابا مدانة والاعتداء على الكنائس العربية مدان

سمير جبور*

■ بالامس كانت الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للاسلام ونبيه الكريم، واليوم تصريحات صادرة عن أعلى مرجع كنسي في العالم، كما اعرب عنها ذلك البابا بندكتوس السادس عشر الذي وجه ضربة قاسية الى منزلة البابوية.

سكت دهرا ونطق كفرا

ذلك الجالس على الكرسي الرسولي والذي لم أتوسم به خيرا منذ ان اعتلى عرش الرسولية ـ ليس لان تقاسيم وجهه لا تنم عن اية عاطفة ـ بل لانه لم يعرب عن تعاطفه مع الشعوب المصلوبة ولا سيما الشعب الفلسطيني بمن فيهم المسيحيون العرب الذين يعانون من مظالم الاحتلال. وبعكس اسلافه الذين لم يتركوا مناسبة الا وأعربوا فيها عن دعواتهم وتضرعاتهم لرفع الظلم عن الشعبين الفلسطيني والعراقي اللذين يرزحان تحت احتلال بغيض، فالبابا الحالي لم يعرب ولو بكلمة واحدة عن تضامنه مع هذين الشعبين. فبدلا من ذلك راح هذا البابا الاهوج الارعن الجاهل يدلي بتصريحات مقطوعة عن الواقع دون أن يحسب حسابا لردات الفعل التي تحدثها ودون فهم معنى كلامه واستشهاداته، ودون مراعاة للمشاعر الدينية العميقة التي تكتنز في نفوس مليار وربع مليار مسلم. كان يلتزم بالصمت وصمته الصارخ هذا اوحى لي بالكثير. فسكت دهرا ونطق كفرا.

والعامل المشترك بين الحدثين المستنكرين ـ الرسوم والتصريحات ـ انهما ساهما في اثارة الفتنة بين العالمين الاسلامي والمسيحي وفي توسيع الشرخ الذي احدثته مأساة 11 ايلول (سبتمبر) قبل خمسة اعوام. وبتلك التصريحات الغبية انضم بابا روما ـ من حيث يدري او لا يدري ـ الى جوقة المحرضين من المحافظين الجدد الذين يركبون موجة 11 ايلول (سبتمبر) من اجل اثارة النعرات الدينية وتأجيج صدام الحضارات والثقافات للتغطية على حروبهم التدميرية، وتصوير نضال الشعوب من اجل الحرية والاستقلال ومقاومة الاحتلال بانه حرب دينية قائمة على العنف والتعصب.

ومما اثار حفيظة الشعوب الاسلامية والعربية، بمن فيها جميع الطوائف المسيحية، ليس الاستشهادات بحد ذاتها، بقدر ما انها تفتقر الى التوازن. فقد فضل البابا الاستشهاد بذلك القيصر البيزنطي المسمى عمانوئيل الثاني بليلوغروس الذي تحدث عن «الجهاد» في الاسلام قبل قرون، دون أن يأتي هذا البابا على اي ذكر للعنف الذي يتعرض له الشعب الفلسطيني مثلا. فهو لم يشر ولو بكلمة واحدة الى الكنائس المدمرة في فلسطين (ولا سيما في اقرت وكفربرعم) والى رحيل المسيحيين الفلسطينيين بسبب ما يتعرضون له من مظالم ومصادرة اراض. لم يشر ولو بكلمة واحدة الى الاعتداء على الاماكن المسيحية في القدس (القيامة) وبيت لحم (المهد) والناصرة (البشارة). واذا ارتأى ان يرشد بعض الحركات الاسلامية بالاقلاع عن أعمال يعتبرها هو انها اعمال عنف وارهاب، كان حريا به أن يندد ايضا بالمذابح التي ترتكبها اسرائيل ولا تزال منذ ستة عقود. كان حريا به ان يشير ولو بكلمة واحدة الى حرب تدمير لبنان التي ارتكبت خلالها اسرائيل ـ بالامس القريب فقط ـ أفظع المذابح واستخدمت جميع صنوف الاسلحة المحرمة دوليا باعتراف بعض الاسرائيليين انفسهم! كان حريا به ان يقدم ولو كلمة عزاء لآلاف القتلى والمشردين من ابناء لبنان وفلسطين. كان حريا به ان يدعو الى انهاء الاحتلال الكريه في فلسطين والعراق والذي هو مصدر كل عمل عنفي.

ان تصريحات بابا روما الاستفزازية والتحريضية مدانة بكل المقاييس، وهي لا تمس مشاعر المسلمين فقط بل وبمشاعر مسيحيي المشرق ايضا الذين تربطهم بالحضارة الاسلامية وشائج العيش والمصير المشترك والتراث الواحد واللغة الواحدة والوطن الواحد. واني على يقين ونتيجة جميع ما سمعته من ردات فعل، فان المواطنين المسيحيين وزعماءهم الدينيين والدنيويين شعروا بالاساءة هم ايضا بصورة لا تقل عما شعر به اخوانهم في الوحدة والمصير.

الاعتداء على الكنائس العربية مشين

ومن المؤسف أن يلجأ بعض المتهورين والجهلة والحاقدين الى الاعتداء على الكنائس العربية في غزة والضفة الغربية، ولا سيما في نابلس التي سطرت انصع الصفحات من التعايش النموذجي الاسلامي المسيحي منذ قرون. فالذين قاموا بالاعتداء على الاماكن الدينية المسيحية فعلوا ذلك اما عن جهل او عن نوايا مشبوهة مدفوعين من اعداء العرب والاسلام. فعندما يعتدون على الكنائس بهذه الصورة، فانهم يريدون تثبيت التهمة التي تحدث عنها بابا روما بأن الاسلام لا يعرف الا العنف. ان رسالتي الى هؤلاء جميعا الا يلجأوا الى مثل هذه الاعمال في المستقبل والتي تستنكرها الاكثرية الساحقة من المسلمين في جميع انحاء العالم. عليهم الا يزاودوا على مسيحيي المشرق لانهم جزء لا يتجزأ من النسيج الاجتماعي العربي الاسلامي وهم افرادا وقادة ورجال دين يتصدون للاحتلال لانه يصيبهم كما يصيب الجميع. والاعتداء على الكنائس العربية ليس هو الرد الصحيح لان نتائجه ستكون عكس ما توخى منه الفاعلون اذا كانوا يريدون الانتقام من البابا.

وفي حقيقة الامر ان اعتذار بابا روما على تفوهاته لا يكفي، ولا ينفع الاعتذار بعد وقوع الحدث. بل عليه ان يعترف بجهله بواقع الحال في المشرق، وعليه ان يندد بالاحتلال ويدافع عن المسيحيين في المشرق ويعمل على حماية الاماكن المقدسة المسيحية في فلسطين، وان ينتصر للمظلومين والمنكوبين. عليه ان يسمع صوته منددا بارهاب الدولة الذي ترتكبه اسرائيل في فلسطين ولبنان والامريكيون من المحافظين الجدد المتصهينين في العراق.

واذا لم ينبر الحبر الاعظم للدفاع عن مسيحيي المشرق وحماية وجودهم وأماكنهم المقدسة فما الفائدة من ارتباط كنائس المشرق بالكرسي الرسولي؟ وأنا ادعو جميع قادة الطوائف الدينية المسيحية الى تعليق ارتباطهم بالفاتيكان والانفصال عنه مؤقتا حتى يعترف بمسؤوليته والتزامه بواجبه بحماية اتباعه. كما عليهم ان يعلنوا على الملأ ان الفاتيكان لا يمثلهم عندما يجنح الى اتخاذ مواقف منافية لمصالحهم ومعتقداتهم ومسيئة لاخوتهم في الوطن.

* كاتب من فلسطين يقيم في كندا

تصريحات زكي اليماني، المقاومة العراقية ونكران الجميل السعودي

عبدالسلام بنعيسي*

■ أدلى زكي اليماني وزير البترول السعودي الأسبق بتصريح لافت لقناة الجزيرة. فلقد أفاد الملايين من المشاهدين العرب في الحلقة الثانية من برنامج «زيارة خاصة»، بأن الولايات المتحدة الأمريكية كانت على وشك احتلال المملكة العربية السعودية، والامارات العربية المتحدة، والكويت، بعد حظر تصدير النفط العربي للغرب عقب حرب رمضان سنة 73.

فمن الموقع الرسمي الحساس الذي كان زكي اليماني يتبوؤه في جهاز الدولة السعودية، ومن وحي المُطّلع على جميع الأسرار التي كانت تتفاعل في المنطقة في تلك الفترة المصيرية من تاريخ الأمة العربية، صرح الرجل بأن أمريكا كانت قاب قوسين من احتلال ثلاثة بلدان عربية دفعة واحدة، والسبب هو أن هذه الدول اتخذت قرارا سياديا بوقف تدفق النفط الى الدول الداعمة لاسرائيل التي كانت في حرب مع العرب.

في ضوء تصريح الوزير السعودي السابق يمكن القول ان غزو أمريكا للعراق واحتلاله، جاء تنفيذا لقرار كان متخذا من طرف الادارة الأمريكية في بداية السبعينات. فمنذ تلك الحقبة وواشنطن تتحين الفرص المناسبة لاحتلال جزء من الوطن العربي في منطقة الخليج، ولقد تمكنت من ترجمة مشروعها الاحتلالي سنة 2003، بعد فرض حصار على العراق دام حوالي 13 سنة لانهاكه واضعافه، وتحويله الى لقمة سائغة في أفواه الأمريكيين.

لقد تبين الآن أن تجريد العراق من أسلحة الدمار الشامل، أو محاربة الارهاب، أو اقرار الديمقراطية في هذا البلد، لم تكن الا أكاذيب وأباطيل لم تنطل حتى على الأطفال. الهدف كان هو احتلال العراق للسيطرة على خيراته، ومن خلاله على ثروات المنطقة، وفقا لمخطط كان قد أُعد من طرف الأمريكيين في بداية السبعينات، تبعا لما قاله السيد زكي اليماني.

تعاقبت الادارات الحاكمة في واشنطن، وتعددت وتنوعت، ما بين جمهوري وديمقراطي، وظل المخطط على حاله، الى أن جاءت الفرصة المناسبة لتنفيذه، فقامت ادارة بوش بذلك. والدليل هو أن غزو العراق واحتلاله تم بمباركة وتأييد أغلبية النواب الأمريكيين، سواء من الحزب الديمقراطي، أو الحزب الجمهوري. ولم تظهر الخلافات بين الحزبين الحاكمين في أمريكا حول العراق، الا بعد اندلاع المقاومة الشرسة للاحتلال حيث أصبحت كلفته ، بشريا وماديا، باهظة جدا، ولم يعد للاحتلال المردود الذي كان المسؤولون الأمريكيون يتوقعون الحصول عليه من وراء غزوهم لبلاد الرافدين.

لقد كان الاعتقاد السائد لدينا هو أن غزو بلدان مستقلة واحتلالها وفرض السيطرة عليها مرحلة تاريخية عاشتها الانسانية وطوتها نهائيا، وأن ليس هناك من يفكر في العودة الى تلك المرحلة لاعادة احيائها، ولاستنساخها من جديد، نظرا للمآسي والأهوال التي ترتبت عنها، ونظرا للتطور الذي عرفته البشرية في مجال احترام الأمم والشعوب لبعضها البعض، ولوجود هيئة الأمم المتحدة، والقانون الدولي الذي من المفترض أن تحتكم وتطمئن اليه الشعوب..

غير أن تصريح السيد زكي اليماني يفيدنا بأن الانسانية لم تتمكن من طي صفحة هذه المرحلة بعد. فأمريكا كانت تنوي غزو ثلاثة بلدان عربية سنة 74، وربما بسبب انقسام العالم وقتها الى معسكرين، الشرقي والغربي، وتخوف واشنطن من تبعات هذا الغزو، والرد الذي كان يمكن أن يواجهها به الاتحاد السوفياتي، دفعها الى التريث وعدم الاقدام على هذه المبادرة، لما كانت تنطوي عليه من مخاطر حتى على أمريكا نفسها.. أما بعد انهيار المعسكر الشرقي، وتفتت الاتحاد السوفياتي، واستفراد واشنطن بالتحكم في العالم، فان الادارة الأمريكية كشرت عن أنيابها، وأخرجت من الدرج مخططها الرامي الى غزو بلدان في العالم العربي، وطبقته في العراق.

لا نعلم ماذا كانت النوايا الحقيقية للادارة الأمريكية. هل كانت ستكتفي باحتلال العراق، وتتوقف عنده، فيما لو أن مشروع غزوه قد نجح واستتب الأمن والاستقرار في هذا البلد، وتمكنت من ترتيب الأوضاع فيه تمشيا مع ما كانت ترغب فيه؟ الحديث من طرف الأمريكيين في بداية غزو العراق عن نيتهم في تحويله الى منصة لتصدير الديمقراطية الى باقي الدول العربية المجاورة يجعلنا نتساءل ان كانت واشنطن معنية حقا باقرار ديمقراطية فعلية في العالم العربي، ديمقراطية تأتي الى السلطة بتنظيمات حزبية معادية للسياسة الأمريكية في المنطقة، أم أن الحديث عن تصدير الديمقراطية من العراق، كانت كلمة كودية ترمي الى اخفاء النية في الانقضاض منه على دول الجوار العربية بدعوى اقرار الديمقراطية فيها؟

اذا كانت مقاومة العراقيين قد أفشلت المشروع الأمريكي في العراق وأجهضته، وتحول هذا البلد الى مستنقع غرقت فيه القوات الأمريكية، وباتت عاجزة عن الخروج من مأزقها هناك، فان الواضح هو أن هذه المقاومة لا تدافع فقط عن عودة السيادة والاستقلال الى العراق، انها تحمي دول الجوار العربية من احتمال تعرضها للغزو والاحتلال المباشرين من طرف أمريكا. فالقوات الأمريكية التي غاصت في الوحل العراقي لا يمكنها التفكير مجرد التفكير في احتلال بلد عربي آخر.

والى ذلك، فمن غير المستبعد أن يفاجئنا في السنوات القادمة واحد من الوزراء العرب الحاليين بالقول، ان القوات الأمريكية كانت على وشك احتلال مكة والرياض والكويت، لولا فشل مشروعها في بلاد الرافدين، وتمكن العراقيين من احباطه واسقاطه بفضل مقاومتهم الأسطورية. المؤسف والمحزن، هو أن هذه المقاومة لا تحصل من الأشقاء العرب سوى على العزل، والحصار، والتشويه، والخذلان، فهل هناك نكران للجميل أكبر من هذا النكران؟

* صحافي من المغرب

خدعة الديمقراطية الكبرى! الخليج العربي نموذجاً

مهند حبيب السماوي*

■ تُعد الديمقراطية، في الوقت الحاضر، من بديهيات ومسلمات الفكر السياسي في أغلب الدول الأوربية الحديثة التي وجدت فيها الديمقراطية تطبيقاً على أرض الواقع. إذ قد أجمعت هذه البلاد ـ وكما هو معروف ـ على أن من أهم متطلبات الحياة السياسية يتمثل في صيغة الديمقراطية ومرتكزاتها التي تتألف من الانتخاب الحر للسلطة السياسية، وضرورة الفصل بين السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية، ووجود دستور تستمد منه الدولة قوانينها وتشريعاتها، بالإضافة إلى حرية التعبير عن الرأي واحترام حقوق الإنسان وتكوين الأحزاب والتجمعات السياسية وإنشاء وسائل اعلام مستقلة.....الخ.

وفي رأيي الشخصي ـ أن الديمقراطية ـ من حيث أنها شكل من أشكال الحكم السياسي، ليست حتمية تاريخية، ولا مطلبا عالميا، ولا ضرورة كونية، على الرغم من كل الشعارات الزائفة والكليشيهات الخادعة والعبارات الموهة والمصطلحات المنمقة التي تحاول أمريكا تسويقها عبر وسائل الاعلام إلى دول العالم عموماً وبعض بلداننا العربية خصوصاً.

فالمنطق العقلاني التحليلي الهادئ من جهة أولى واستقراء الواقع المعاش والتجربة السياسية اليومية من جهة أخرى، يؤديان بنا ـ كل على حدة ـ إلى رفض الادعاء العريض المتعلق بحتمية الديمقراطية، وضرورة تطبيقها في كل أرجاء دول العالم، خصوصاً في عالمنا العربي الذي تجد أمريكا فيه سوقاً كبيراً ومرتعاً خصباً لتسويق مفهوم الديمقراطية وما يتضمنه من أفكار أخرى تتعلق به تعلق الطفل بأمه الرؤوم وذلك بسبب الأفعال المشينة والتصرفات الحمقاء والسلوك الأهوج لبعض حكامه بحق شعوبهم المبتلية بهم.

وأعتقد أن موقفي الواضح والصريح الذي يتبنى رفض مبدأ حتمية الديمقراطية وضرورة تطبيقها في كل بقاع العالم، لا ينطلق من موقف عرقي مغلق أو أساس تعصبي أعمى، بوصف الديمقراطية (بشكلها المعاصر) نتاج الآخر الذي هو ليس أنا، بالمعنى الفردي والجمعي للكلمة، وبالتالي لا ينتمي إلى فضاء هويتي ومجال حضارتي ومساحات ثقافتي. بل هو موقف يستند إلى ثلاثة أسباب وجيهة يُعضد بعضها الآخر:

الأول: يتعلق في اختلاف التجربة السياسية لكل شعب من شعوب العالم، مما يعني استحالة أو عدم امكانية سلخ تجربة ما من سياقها التاريخي واستنساخها في بلد آخر، لأنها لا تدور في سياق تجاربنا. حيث أن بعض تلك المفاهيم المصدرة إلينا قد ولدت ونشأت ونضجت من خلال أتون تجارب ومخاضات بلدان معينة اختمرت في فترة زمنية محددة وفي ظروف مكانية محكومة بقوانين تاريخية تختلف بل وتتناقض مع بلدان العالم الآخر التي تعيش في عوالم أخرى (بالمعنى الانطولوجي والابستمولوجي) سواء كانت في نفس القارة أو غيرها.

ولعل في نظرية «العقليات المختلفة» للعالم الأنثروبولوجي ريتشارد شويدر دليلا دامغا على ذلك اذ انه أوضح انه لا توجد هنالك أنماط أنسانية شاملة يمكن أن تنطبق على جميع البشر، حيث أن لكل حضارة ومجتمع خصائص معينة شكلتها سياقات تجاربه التاريخية عبر العصور المختلفة، ولذلك لا يمكن أن نعممها على بقية الحضارات والأمم ونطبقها بشكل مباشر وحرفي من غير أن نلاحظ الاختلافات الكبيرة البنيوية والفروقات الواضحة الجوهرية التي تقع بينها.

الثاني: أن أمريكا وغيرها من مصدري مبدأ الديمقراطية الى بقية بلدان العالم تروم فرض هذه المصطلحات علينا بالقوة كصيغة مثلى للعيش ونمط وحيد للحياة من ناحية، وكجزء من خياراتها التي تراها كونية ومطلقة وقابلة للاستنساخ من ناحية أخرى، وذلك من اجل تحقيق مآرب وغايات معينة تتخفى وراء هذه المفاهيم، بدليل أن أمريكا التي تحاول تصدير الديمقراطية وتبشر بها تتحالف وتؤيد الكثير من البلدان التوتاليتارية والأنظمة الدكتاتورية التي بينها وبين الديمقراطية بوناً شاسعاً وفجوة واسعة يتعذر ردمها.

الثالث: أن شكل الحكم الذي يختاره شعب ما يستند بالأساس إلى قيم نفعية ومصالح براغماتية يراها هذا الشعب أو ذاك مناسبة له وملبية لطموحاته ومتوافقة مع عقائده التي يؤمن بها ويراها صحيحة وتقوده عبر سفينتها إلى بر الأمان متحملاً مسؤولية قراره والنتائج المترتبة على خياره. ولذلك من غير الضروري أن تكون الديمقراطية صيغة وحيدة للحكم تلغي وتستأصل الصيغ السياسية الأخرى للحكم التي ربما يقررها شعب من شعوب العالم بملء ارادته المستقلة.

ولعل ابسط مثال على بطلان ضرورة الديمقراطية كشكل وخيار وحيد للحياة السياسية، تجربة بعض الدول الخليجية في الوطن العربي كقطر والامارات والبحرين وعمان مثلاً. فالمواطن هنا، بصورة عامة، لا يفكر في الديمقراطية ولا يطالب حكوماته باجراء انتخاب ولا يحاول تشكيل أحزاب سياسية لأنه يعيش ـ وببساطة ـ برفاهية عالية وبمستوى معاشي أفضل حتى من الإنسان الأوروبي، بحيث يتوفر له ما يطلبه وما يحتاج إليه في حياته اليومية وبالتالي تُشبع ميوله وتُلبى رغباته وتتحقق طموحاته وأحلامه وأمنياته التي يسعى إليها مع غياب حالات انتهاكات حقوق الإنسان الخليجي الفاضحة من قبل حكوماته على الرغم من وجود استثناءات هنا وهناك لا يمكن اغفالها والتغاضي والدفاع عنها، في حين على النقيض من ذلك نلاحظ أن اغلب مواطني العالم العربي يُطالبون بالديمقراطية كصيغة للحكم لأنهم يتوقعون أن الأخيرة يمكن أن تخلصهم من أوضاعهم المزرية وانتهاكات حقوق الإنسان الكبيرة التي يعيشون في كنفها، فضلاً عن المستوى المعاشي المتدني الذي يرزحون تحت وقعه مع العلم أن حكوماتهم، لو رفعت المستوى المعاشي والخدماتي للمواطن وأعطي لكل ذي حق حقه وأصبح في مقدور أي إنسان العيش برفاهية وبمستوى راق، لما طالب بالديمقراطية ولأصبحت لديه مجرد شعار مستلب المضمون ومجرد المحتوى وعاري الدلالة لا يتناسب مع واقعه الذي يعيشه كما هو الحال بالنسبة لنظرة بعض مواطني الخليج العربي للديمقراطية عموماً. واستناداً إلى هذا التحليل البسيط يتبيّن لكل قارئ حصيف خطيئة زعم ح